مدخل إلي:

العلم في القرآن

أ. د. زينب عبد العزيز

2022

ليت المسلمين يُبصرون،

يُدركون،

ولا يَخشون..

تقديم

العلم في القرآن كالبحر الممتد حول الكون بأعماقه وأبعاده.. البحر الذي خلق ربي منه وفيه كل شيء حيّ، وكل ما في الوجود.. فهو الخلاق العليم، عالم الغيب والشهادة، علاّم الغيوب المعروفة والمغيّبة عن العالمين. والعلم هو إدراك الشيء بحقيقته. العلم يقين، العلم معرفة لاستيعاب الكلّي والمُركّب والجزئي مما خلق ربي.

وتطلق كلمة "العلم" على مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة كعلم الفلك أو غيره من العلوم. فالعلم اذن هو جمّاع متجانس للمعرفة المتعلقة بأنواع معينة من الأحداث والأشياء أو الظواهر الخاضعة لقوانين تحققت منها المناهج التجريبية. وكل فرع من أفرع المعرفة يسمي علم، كعلم الرياضيات. كما يمكن تعريف العلم بأنه مجموعة متجانسة من المعلومات المتعلقة بفئة معينة من الأحداث، والأشياء، أو الظواهر الخاصة بقوانين ووسائل تجريبية، أو كل فرع من أفرع العلم والمعرفة من قبيل علم الرياضيات وعلومها بمختلف تفريعاتها.

العلم اسم، ويعني إدراك الشيء على حقيقته. فهناك العلوم الحقيقية، التي لا تتغير بتغيّر الملل والأديان والنحل، كعلم المنطق؛ والعلوم الشرعية، كالفقه والحديث وغيرها؛ وهناك العلم اللدني، أي العلم الرباني الذي يصل الي صاحبه عن طريق الوحي والإلهام بعدة وسائل.

وقد اتسعت العلوم المتعلقة بالإنسان والعالم المحيط به إلى درجة يصعب حصرها، إلا أن ما نصبو اليه في هذا البحث هو تأمل ودراسة ما يكرمنا به ربي من خلال كتابه العزيز تحت عنوان

"العلم في القرآن"، استكمالا للبحثين السابقين **"الغيب في القرآن"**، و**"الحُبُك في القرآن"**. وكلمة العزيز لغةً وفقهاً كما حددها لي الشيخ الشعراوي رحمه الله، تعني: الذي لا يُقهر.

ومن صفات الله في مجال العلم والمعرفة أنه العليم، والعالم، والعلام. فقد قال ربي عز وجل أنه الخلاق العليم. وقال سبحانه: عالم الغيب والشهادة. وقال: علاّم الغيوب. فهو العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولمّا لم يكن بعدُ قبل أن يكون. فهو سبحانه لم يزل عالما ولا يزال عالما بما كان ويكون، ولا يخفي عليه خافية في السماوات والأرض، فقد أحاط علمُهُ بجميع العوالم والمخلوقات والأشياء، باطنها وظاهرها، دقيقها وعظيمها، على أتم الإمكان. فهو سبحانه جلّ في علاه، دوما: عالمٌ عليمٌ علاّمٌ وأعلمٌ، على الإطلاق..

فالعلم هو أساس تقدم الأمم ووصولها إلي أعلي المراتب. انه الدعامة الأهم في تطوير مختلف المجالات الدنيوية والغيبية، الملموس منها وكل ما لا يزال بحاجة إلى ان نتلمس أبعاده ومكوناته حتى نفهمه وندرك كيفية التعامل معه. والعلم يتألف من نوعين أساسيين: العلم التاريخي المتوارث، والعلم المعاصر الذي نواكب أولي خطواته أو تطوراته ونساير تطبيقاته.

وتعني كلمة "العلم" إدراك حقيقة الأشياء وتكوين مفهوم واضح عنها. فمن أهم خصائص العلم أنه قابل للتعديل، لأنه من صنع البشر، كما أن الحقيقة العلمية نسبية لأن بناء العلم تراكمي.

ولا يوجد دليل علي أهمية العلم في حد ذاته أو في حياة الإنسان أكبر من بداية رسالة الإسلام بفعل **"اقرأ"**.. {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾}.. وإن كانت هذه الكلمات أول ما نزل به الوحي على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فهي تتضمن في نفس الوقت معني أول أمر تكليف يبلغه رب العزة للبشر. كما تحمل معني أن العلم مرتبط بالله عز وجل، فهو الذي يُوحي ويُلهم من يختارهم من البشر، وممّن يجدّ ويجتهد، وكلاّ على قدر اجتهاده وطاقته الروحية والذهنية والبدنية. لأن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولأن العلم والإيمان وجهان لعملة واحدة.

وسورة {**العلق**} التي تُعد من قصار السور، تحمل معني كيفية خلق الإنسان، وأن الله جل في علاه قد علمه ما لم يعلم، وأن الإنسان يطغي، إلا أن العودة إلى رب العزة حتمية، حيث الحساب وارد وفي انتظاره. فالإنسان قد يكون علي الهدي، أو ينهي عبدا إذا صلّي، أو يكذب ويتباعد، إلا أنه مهما فعل فالحساب هو نهاية المطاف لا محالة.. لذلك ينصح ربي رسوله الكريم بعدم طاعة المكذّبين وأن يهتم بالصلاة والسجود والتقرب إلي الله.. فهذه هي الدعامة الأساس أو الحبيكة الإلهية التي تصل الإنسان بربه كالعُروة الوثقي.

ونطالع كاستكمال لهذه السورة أو لفعل أمر "اقرأ"، سورة {**القلم**} المكملة لها في المعني العملي، حتى وإن ورد في سورة {**العلق**}، أن ربي علّم بالقلم. فالقراءة يواكبها القلم للكتابة. لذلك يحث ربي رسوله الأمين على الثبات، وعلى مخالفة المكذبين وعدم طاعتهم، خاصة كل كذاب مغتاب للناس، بخيل، شديد المنع للخير، رغم كونه صاحب مال وبنون! ويتكرر التوجيه بالالتزام بأوامر الله وترك ما ينهي عنه. فهي أوامر بدأت بأهمية القراءة والكتابة، ثم بمقارنة بين المسلمين والمجرمين. إلا أن التساؤل الوارد في الآية 47 يستوقفنا لحظة: {أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾} . وهو ما يوضح أهمية مجال الغيب في منظومة الحوار هنا وفي كل نص القرآن، بل وفي حياة الإنسان. ويطرح سؤالا تلقائيا أو استفساريا عن الغيب وموقعه في هذا الحوار العام.

فلقد ورد لفظ الغيب في القرآن الكريم في ستين موضعا، بمعان مختلفة، نعلم منها أن هناك عالم الغيب بكل ما يتضمنه من مجالات، وقد تناولت أهمها في بحث **"الغيب في القرآن"**. وما ندركه من هذه الآية أن هناك "علم الغيب" من بين ما يحتوي عليه القرآن الكريم من علوم. فمما نطالعه في القرآن أن الغيب علمٌ قائم بذاته، له دراساته وقراءاته بل وتدريباته.

ولقد كرّم الله العلماء بنعمة كبيرة، فهم أول الخلق شهادة وإقراراً لله بالوحدانية بعد الذات الإلهية والملائكة، فهو القائل سبحانه: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾} (**آل عمران**). وفي حديث للرسول عليه الصلاة والسلام

(أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح): "أن العلماء ورثة الأنبياء". وقد قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: "فضل العالم على العابد كفضلي علي أدناكم".

كما أن المقصود بالعلم في المنظور القرآني، وكل فرع من أفرع المعرفة مشمولةٌ أيضا، ان العلم يقود حتما إلى الإيمان بالله وتوحيده. فأصل العلم في اللغة نوعين: نظري وعملي. النظري إذا عُلم فقد كَمُل، كالعلم بموجودات العالَم. والعملي فلا يتم إلا بأن يُعمل، كالعلم بالعبادات.

ولقد وردت كلمة "علم" وحدها في القرآن الكريم ثمانون مرة، وكلمة علم بتصريفاتها 779 مرة. وللعلم مصدران: الكون المادي والوحي الإلهي، سواء أكان القرآن الكريم، أو لمن ارتضي ربي من الأنبياء والرسل. وهناك كلمات أخري تشير إلي العلم ولم تذكر بلفظته، مثال: اليقين، الهدي، الفكر، الحكمة، الفقه، البرهان، الدليل وغيرها من معان تندرج تحت معني العلم وتحث عليه.

وكلمة العلم قد تعني الدين، كما في سورة **"البقرة"**: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾}. وهي أول إشارة توضح لنا مدي ارتباط العلم بالقرآن، من جهة، وحتمية رفض الشرك بالله.

كما إن كلمة العلم قد تعني معني النبوة: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾}. ومن معانيها التميّز: {وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا} (166 آل عمران). كما تأخذ معني الفضل، مثلما في سورة القصص: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي} (الآية، 78).

وبخلاف المعاني التي جاء عليها اللفظ، وإن كانت تحمل دلالات محددة يقتضيها سياق الآية، فلا تعارض ولا تنافر بينها بل ترجع إلى المعني الرئيسي لكلمة "العلم"، وهو معرفة الشيء على ما هو عليه.

ولو تأملنا مختلف تركيبات كلمة "العلم" في القرآن لوجدنا بحراً من العلوم ينساب من هذه المفردة، ممتدا أمام أعيننا، فمنها عبارات من قبيل العلم عند الله، وعلم الغيب، ومفاتح الغيب، وعلم اليقين، وعلم الساعة، وعلم الكتاب، وعلمٌ من الكتاب ـ فالكتاب يقينا يذخر بعلوم متعددة.. وكلها علوم لو

تتبعناها في القرآن لخرجنا برؤية متكاملة عن منظومة العلم والعلماء، خاصة لو أضفنا إليها تركيبات من قبيل: الذين أوتوا العلم، والراسخون في العلم.

أما كلمة "الكتاب"، فما أكثر ما ورد عنها، ومنها على سبيل المثال: كتاب فصلناه علي علم، الكتاب والحكم والنبوة، والذين أُورثوا الكتاب، ومحمد عليه صلوات الله والكتاب. وقد وضعته في آخر هذه القائمة الموجزة لأنه خاتم النبيين وخاتم الرسالة. فالدين عند الله هو الإسلام.

والعلم عند الله فعلا أكيدا مؤكدا، فهو الذي أنشأنا وجعل لنا السمع والإبصار والأفئدة، وهو الذي ذرأنا في الأرض وإليه سوف نُحشر، لأنه هو سبحانه الرحمن الرحيم وعليه توكلنا. و"الأبصار" هنا تعني العين والنظر والبصيرة وعين القلب، كما تعني العلم والتأمل في أمر الله وفي الدين والعلم. فهي تشير إلى البصر والبصيرة، والأبصار والبصائر، كما تدلنا وترشدنا بقوة الحواس وقوة بصيرة القلب فهي ستشهد لنا وعلينا يوم القيامة. لأن الله بما نعمل بصير، وهو بصير بالعباد وإن كان سبحانه لا تدركه الأبصار.

و"الإيمان بالغيب" هو أول فعل أمر يصدر من رب العالمين للبشر، وتحديدا: الي المتقين. وفرض عليهم الإيمان بالغيب ترتيبا قبل إقامة الصلاة. {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾}. وهذا أول تحديد لمعني الكتاب أنه هداية للمتقين، هداية من الله سبحانه وتعالي لأفضل من خلق من البشر. ومعني المتقين يحدده ربي في الآية التالية: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾} (**البقرة**). وكأن الإنفاق هو قوة الدفع لمختلف المجالات الدنيوية.

كما يأتي الغيب بمعني الوحي، والقرآن، وأحداث القدر. وهي كلمات تقودنا إلى عبارة {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ} (.. الآية، 59/ **الأنعام**). فهو سبحانه {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾} (**الجن**). والآيتان 26 و27 متصلتان في المعني لأن كلمة "أحدا ۝ " عليها علامة "لا" صغري، بمعني أنه لا يجوز الوقوف عندها. كما إن الاستثناء بلفظة "إلا" شديد الوضوح على مواصلة المعني. أي إن معني الآية 26 ممتد إلى كلمة رسول، ولا تتوقف لأن المعني يرتبط مباشرة ببداية

الآية 28 {لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾}. وبذلك فإن الجزء المتبقي من الآية 27: {فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} فهي بمثابة جملة اعتراضية متعلقة بالجن وباقي الموضوع.

كما تتضمن كلمة الغيب كل ما غاب عن حواس الإنسان وعلمه ولا يدركه إلا بما يفتح الله عليه من أبواب مجال علم الغيب والمعرفة. لذلك قال رب العزة: {أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾} (**النجم**). ذلك ان علم الغيب من أمر ربي ولا يُطلع على ملامح منه إلا لمن ارتقي عن مستوي الحياة الدنيا والتمسك ببريق مادياتها ومغرياتها.

أما مفاتح الغيب فتعطينا ملمحا آخرا من هذا العلم، لأن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله، فهو يعلم ما في البر والبحر، ولا تسقط من ورقة من الشجر إلا يعلمها عز وجل. وهو الذي يتوفانا بالليل ويعرف ما جرحنا بالنهار وإليه مرجعنا ثم يُنبئنا بما كنا نعمل في هذه الدنيا. إلا أن تلك المفاتيح لا تفتح المغلقات إلا لمن اجتهد وقام بالجهاد الصادق في حق الدين والعلم، وفي حق نفسه كإنسان خلقه الله من روحه لعمارة الأرض، وعليه أن يرتقي كإنسان وروح.

و"علم اليقين" يدخل في مجال الجلاء البصري من صفة العلم فوق المعرفة والدراية. فكما نطالع في سورة {**التكاثر**}، أنه مستوي من الرقي والشفافية الذي يسمح برؤية الجحيم، بل نراها عين اليقين، أي رؤية حقيقية يقينية. وهو مستوي لا يصل إليه إلا من كان له باع من العلم والهداية والثبات والرقي النفسي، وخاصة الإخلاص لله عز وجل.

وهناك عين اليقين: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾} (**التكاثر**). فعين اليقين تسمح برؤية أعلي من المعرفة والدراية، بل وأعلي من مستوي العلم المحدد، لكنها رؤية مؤكدة يقينية تدخل في مجال الغيب ليصل إلي الجلاء البصري.

ولكلمة اليقين معان أخري كالموت، والحق الذي وعد به الله من ينصره، ويقال لغةً: يقن اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية. إذ يتطور مصطلح اليقين ليفيد معني العلم وإزاحة الشك، واستقرار العلم الذي لا يتحول ولا يتغيّر. ويضيف بعض العارفين أنها طمأنينة القلب على حقيقة

الشيء والتصديق بالغيب بإزالة الشك والريب. كما أنه يرمز إلي العلم المستودع في القلب وهو من الإيمان الجازم بمنزلة الروح من الجسد. وقد وردت مادة "يقن" في العديد من الآيات. ومنها اليقين بمعني العلم الجازم الذي لا يقبل الشك: {إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾} (**الواقعة**).

وضمن هذا الفيض الواسع من العلوم وتنوّعها، نطالع أن هناك "علم الساعة". وما أكثر ما ورد حوله من آيات، وأهمها تلك التي تحسم وتوجز موضوع حياة الإنسان في كلمات: {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾} (**الزخرف**). فهي تشير من جهة إلى عظمة مُلك ربي الذي يحوي السماوات السبع والأرضين السبع وكل ما وَسِعَ كرسيّهُ، بل وكل ما وسع عرشه بما نعلم وما لا نعلم. فهو وحده الذي يعلم علم الساعة وإليه نُرجع. أي نرجع إليه بإرادته هو سبحانه وتعالي وليس باختيارنا. فذلك نموس الكون الذي في يد الرحمن. فما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب! ولمح البصر هذا، المرتبط بالساعة شيء عظيم: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾} (**الحج**).

ويتناول هذا البحث، المعنوَن: "**العلم في القرآن**"، ثلاثة مداخل أساسية حول: الكتاب والقرآن، وأهم ما يمكن استخراجه من تصريفات كلمة "العلم" الواردة في كتاب الله عز وجل.

الفصل الأول
الكتاب والقرآن

الكتاب في القرآن

يتلاحم العلم في نسيج القرآن ليجعل من ذلك الكتاب المبين وحدة متكاملة، متداخلة البناء بإحكام، نسيج متماسك بحبُك وعَمد لا نراها، لكنها تتشابك وتتواصل لتجعل منه بناءً متفرد الكيان. ومن أهم موضوعات العلم الواردة في القرآن الكريم نطالع موضوع: "الكتاب"، و"علم الكتاب"، و"وعلم من الكتاب"، و"كتاب فصّلناه علي علم"، و"الكتاب والحكم والنبوة". وهو أعلي وأهم ما يُوحَي لنبيّ من الأنبياء.

ونطالع في سورة "**النساء**" إن الله قد أوحي إلى نبينا الكريم، كما أوحي إلي نوح والنبيين من قبله. وأوحي إلي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وأتي داود زبورا. ورسلا قد قصصها الله من قبل على سيدنا محمد، ورسلا لم يقصصهم عليه. وقد كلّم الله موسي تكليما. واستخدام المفعول المطلق يعني تأكيد أن الحدث قد وقع فعلا.

كما أرسل الله سبحانه: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما/ لكن الله يشهد بما أُنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفي بالله شهيدا} (165و166/ **النساء**). وبعد شهادة الله، جل في علاه، على صدق الرسالة التي يبلّغها لنا في هذا القرآن فلا توجد كلمات يمكن إضافتها.

ولقد وردت كلمة "الكتاب" 162 مرة في نص القرآن الكريم، ونطالعها من سورة {**البقرة**} في الجزء الأول، ويتكرر ذكرها ويسري وجودها في نَص القرآن حتى سورة {**البيّنة**}، في الجزء

الثلاثين. أي إن كلمة "الكتاب" تمتد عبر كل أجزاء القرآن، بكل ما تحمله وتكشفه لنا من معاني. ولو تأملنا هذه الآيات لوجدنا أن الله سبحانه وتعالي قد أقسم بالكتاب مرتين بعبارة جد مقتضبة: {والْكِتَابِ الْمُبِينِ}. والمبين تعني أنه واضح بليغ، كاشف، معبّر عن المقصود، مُظهر للحق من الباطل، مضيء وعظيم.

وبعد هذا القَسَم الشديد الإيجاز أوضح سبحانه قائلا: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}، وكررها عز وجل في ثلاث سور. أي إن الآيات والمعجزات هو ما يتضمنه ذلك الكتاب. ثم أكد أن {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}، وأن {تَنزِيلُ الْكِتَابِ من الله العَزيز الحَكيم}، وأن {تَنزِيلُ الْكِتَابِ من الله العَزيز العَليم}.. ولو تأملنا أسماء الله الواردة في هذه الآيات لوجدنا أن الكتاب: من "رب العالمين"، من "العزيز الحكيم"، ومن "العزيز العليم". وتكرار كلمة "العزيز" هي تأكيد لمعني أن الله سبحانه هو الذي لا يُقهر، وأنه الحكيم العليم بأوسع معاني الكلمة علي الإطلاق.

ولقد بدأ المولي عز وجل تعريفنا بالكتاب في ثاني آية من سورة {**البقرة**}، موضحا أن ذلك الكتاب، ذلك القرآن المنزّل من عند الله، هو بلا أدني شك هُدي للمتقين. والمتقون هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله. وهي ثلاث مجالات لا بد للمسلم الذي يتّقي الله أن يؤمن بها يقينا وأن يمارسها ممارسة صادقة اليقين.

ولقد وردت كلمة "الهُدي" في القرآن الكريم باشتقاقاتها 305 مرات، في اثنين وستين سورة من السور. الأمر الذي يوضح لنا أهمية الهدي والهداية، سواء في نص القرآن أو فيما يتم توجيهه للمسلمين طوال مسيرة حياتهم من تعليمات وتعاليم معرفية وحدود.

والمتقون، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، هم الذين سوف ينعمون بكل ما تضمنته آيات الهدي والهداية. ولكي ندرك أهمية الهدي والهداية في حياة الإنسان، علينا أن نعود الي بداية قصة الخلق، إلى قصة آدم حينما عصي أمر ربه هو وزوجته، وانساقا لإغراءات الشيطان.. فنهرهم رب العزة بحدة: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾} (**البقرة**).

والهُدي الذي أرسله الله عز وجل هو القرآن بمختلف مسمياته. أي أن المفروض على الإنسان، منذ بداية الخلق، أن يتبع الهدي والهداية الواردة في تعاليم الله التي أرسلها، وأن يؤمن بالغيب الي درجة اليقين، ويقيم الصلاة، وينفق مما رزقه سبحانه وتعالي، وألا يتبع خطوات الشيطان. والهُدي هو أحد أسماء الله سبحانه وأحد صفات القرآن. فهو الهادي جلّ في علاه.

والمقصود بعبارة "هُم": الذين يؤمنون بما أُنزل سبحانه على سيدنا محمد، ويؤمنون بالآخرة إيمانا جازما. فالحياة الدنيا هي تجربة مؤقتة، يمر بها الإنسان كاختبار لعلمه واختبار اختياراته التي سيحاسب عليها، فالحياة بكلها قائمة على الاختيار في كل خطوة. ثم تبدأ رحلته في العالم الآخر.. وهذا هو جزء من اليقين. فهذا الكتاب الكريم قد فصله ربي علي علم، هديً ورحمة لقوم يؤمنون.

وتبدأ الموضوعات أساسا بأهمية القرآن، بأهمية ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، والذي نصّ رب العزة علي أنه هدي للمتقين، لتكون آخر آية من الهداية تنص على الكفر بالله والشرك به: أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها.. فأولئك هم شر البرية.

وهو ما يمكن أن نقول عليه مجازا أنه أقصي تلخيص لمعني القرآن في المجتمع الإنساني، الذي ضم من بُلّغوا الرسالة، ويضم اليهود والنصارى والمسلمين. مع تقسيم نوعية البشر بين مؤمن وكافر، ومصير كلا منهم: الجنة أو نار جهنم، وخلودهم في أيّ منها..

ثم نطالع في خطاب مباشر من الله سبحانه إلى سيدنا محمد يحدد فيه الهدف من هذا الكتاب: {إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾} (**الزمر**). {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾} (**الشورى**). أي ان الكتاب قد أُنزل وَحياً من عند الله وبُلّغ وحيا الي سيدنا محمد عليه صلوات الله، ليُبلغه قولا وعملا للعالمين. وهو ما يوضح لنا أهمية الغيب والمجال الروحي في القرآن، وكيف ان القرآن والإسلام قائمان على مجال الغيب أو، بقول آخر: ان الغيب جزء لا يتجزأ من القرآن ومن الإسلام.

فهذا النص الإلهي عبارة عن: {تَنزيل من الرَحمن الرحيم ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾} (**فصّلت**). وهي آية تربط بوضوح بين الكتاب والقرآن، وإن الاسمان لكيان واحد. كما توضح السبب من تنزيل هذا الكتاب. ولو تأملنا كلمات هذه الآيات المتعلقة بالقرآن لوجدنا أن كلمة "القرآن" قد وردت 69 مرة وتسري في نص الكتاب من سورة {**البقرة**} في الجزء الأول وتمتد في آياته حتى سورة {**البروج**}، في الجزء الثلاثين. وكأنهما كلمتان تؤكدان لنا أن الكتاب والقرآن كيان واحد بمعان وتوجهات متعددة.

ثم يُقسم رب العزة مكرراً:

* {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾} (**الزخرف**)؛

* {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾} (**يوسف**)؛

* {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾} (**الزمر**)؛

* {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾} (**فصلت**).

والتأكيد في العديد من الآيات على أنه قرآن عربي أنزله الله لقوم يعقلون، ويتقون، ويعلمون، يوضح لنا مدي أهمية اللغة العربية بالنسبة لحياة الإنسان المسلم، وأهمية أن يتمسك بتعلمها وأن يتعمق فيها، فهي اللغة التي تربطه بالله وكأنها حبيكة من الحُبُك التي تربط الإنسان بالله.

القرآن في الكتاب

يقول ربي في كتابه الكريم أنه لو أُنزل هذا القرآن علي جبل لرأيناه خاشعا متصدعا من خشية الله. والخشوع هو رمي البصر نحو الأرض، وغَضّهُ، وخفض الصوت. فالخشوع يكون في البدن والصوت والبصر. وكأن الجبل كائن حيّ، وأنه من هول وزن ما أُنزل عليه من حمل ومسئولية، من معلومات وتوجيهات متعددة، قد تصدّع من خشية الله ومن ثقَل كل ما أُنزل عليه..

وقد أوضح لنا رب العالمين في بداية سورة **"هود"** إن الكتاب قد أُحكمت آياته، ثم فصّلت من لدن حكيم خبير. وفي الآية التالية لها مباشرة نطالع: {ألا تعبدوا إلا الله}. وكأن معلومة الشرك بالله واردة في علم الله سبحانه وأنه يحذر الإنسان من الشرك قبل حتى أن يخلقه! ففي سورة **"الرحمن"** نطلع: {الرحمن/ علّمَ القرآن/ خَلَقَ الإنْسان/عَلّمه البيان}. أي إن القرآن موجود قبل خلق الإنسان، وأنه سبحانه قد علمه لقوم آخرين قبل الإنسان. وهو ما تشير إليه أيضا سورة **"التوبة"** {عدّة الشهور عند الله اثني عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض}.

ونطالع في سورة {**الإسراء**} أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، حتى لو كان بعضهم لبعض ظهيرا وسندا معاونا. فالرحمن أنزل القرآن من أم الكتاب الي السماء الأولي، ثم خلق الإنسان وعلمه البيان. وبذلك فإن تفصيل هذا الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. فهو كتاب هُدي ورحمة للمؤمنين، كتاب يهدي للتي هي أقوم. إذ إن آيات القرآن، ذلك الكتاب المتفرّد المبين، هو هداية وبُشرى للمؤمنين. ونعلم من بداية سورة البقرة أن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الذكاة. وإيمانهم بالغيب يجب أن يكون على درجة اليقين وكأنهم يرون الغيب فعلا بأعينهم. وهي إشارة إلى الجلاء البصري.

* وفي شرح جزئية التقويم نطالع أن عدة الشهور محددة بإثني عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض. وفي نفس الآية من سورة {**التوبة**}، يحدد لنا المولي أن منها أربعة أشهر حُرُم، علينا أن نلتزم بها، وفي نفس الآية أيضا يطالبنا رب العزة أن نقاتل المشركين جميعا كما يقاتلوننا جميعا. وكأن مقاتلة المشركين فرضٌ مكتوب على المسلمين منذ وضع ربي نظام الكون، لأنهم افتروا عليه سبحانه وزعموا أن له شركاء وولد.

وإن تأملنا الجزء الأول من الآية ندرك أن الكتاب، كتاب الله، كان موجودا يوم خلق السماوات والأرض. ثم يقسم رب العزة في سورة {**الزخرف**} أنه جعله قرآنا عربيا علّنا ندرك ونفهم كل ما جاء فيه، فهو عند ربي في أم الكتاب عليٌ حكيم، قد أُحكمت آياته وفصّلت من لدن حكيم خبير. وبعد هذه الآية التي تبدأ بها سورة **"هود"** يقول الله سبحانه: {ألاّ تعبدوا إلا الله}. فالتوحيد بالله

وعدم الشرك به محدد في أم الكتاب، وإن الشرك بالله وادعاء أن له شركاء وولد هي كبري الكبائر وأوضح وأهم ما يرفضه الله.

* ويقول لنا ربي سبحانه كنَوْع من التعريف والتحذير في آن واحد: {هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾} (**الجاثية**). ولو تأملنا كلمة "نستنسخ" لوجدنا أن استنسخه تعني اكتتبه عن معارضة. وفي التهذيب: النسخ اكتتاب كتابا عن كتاب حرفا بحرف. والأصل نُسخةٌ. والمكتوب عنه نُسخة لأنه قام مقامه. والكاتب ناسخ. والاستنساخ لغة يعني: كَتَبَ كتابا من كتاب. أي إن ما نطالعه في هذه الآية {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} تعني أن الحفظة الكرام اللذان حدد لهما الله أن يرابطا عن يمين وعن يسار كل إنسان ـ لكنه لا يراهما بل ولا يشعر بوجودهما، يستنسخان أعماله على الدوام طوال حياته. أي أنهما يقومان بعمل نسخة طبق الأصل من أعمالنا بخيرها وشرها، لتُرفع إلى رب العالمين، لنحاسب بمقتضاها يوم الحساب.

وقد أوضح المولي سبحانه أنه قد أنزل القرآن في شهر رمضان، هدي للناس وبيّنات من الهدي ولتوضيح ما بين الخير والشر، والصواب والخطأ، والحلال والحرام. واختيار هذا التوقيت التعبدي المبارك يؤكد أهمية الالتزام بذلك الجانب تحديدا في حياتنا. وهو في كل سورة يضّمنها سبحانه توضيحا للمؤمنين، وكأنه برنامج لحياتهم وتصرفاتهم وأخلاقياتهم ومعاملاتهم في مختلف المجالات والميادين الحياتية. إذ لم يترك الله سبحانه كبيرة أو صغيرة إلا وقد أوضح كيفية التعامل معها أو بواسطتها أو حيالها.

فالقرآن برنامج متكامل الأركان، أو دستور حياة، وتنظيمٌ لمختلف قطاعات الحياة الدنيوية والأخروية، وعلينا أن نلتزم بكل ما جاء به. بما أن كل ما نقوم به في كل لحظة من لحظات حياتنا يقوم الملكان الكريمان، المكلفان باستنساخ أعمال كل إنسان منّا، بخيرها وشرها. وإن هذا الاستنساخ الغيبي المغيّب عنا، والمطابق لأعمالنا، هو الذي سنحاسب عليه. وأقول الغيبي لأن الجسد إلى التراب، أما الروح فإلى ربها. والنفس الأمّارة، تلك التي ألهمها الله فجورها وتقواها،

هي التي ستحاسب عن كل ما قامت به من خير أو شر في كل لحظة من لحظات حياتها، لأنها هي التي تجادل وتختار.

ومن الغريب أن نطالع في تاريخ حياة البشر في القرآن، أن الله سبحانه وتعالي لم يترك أمة إلا وأكرمها بنفس الرسالة والتوجيهات، التي توضح لها ألا يعبدوا إلا الله، وألا يُشركوا به أحدا، وأن يؤمنوا بالغيب، وأن يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم الله. إلا إن أكثر الناس لا يعبئون. وإن رأوا آية يعرضون عنها ويقولون سحر مستعر ويكذّبون ما أكرمهم به رب العالمين ويتّبعون أهواءهم.

وقد جاءتهم من الأنباء والحكَم البالغة ما يجعلهم يستقيموا ويلتزموا بتعاليم الله. فقد كذبت قوم نوح واتهموا الرسول الذي أتاهم بالجنون. وكذبت قوم عاد. فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. ومهما يسّر الله القرآن للذكر يواصل الناس انغماسهم في متاهات الدنيا.. وكذبت ثمود بالنذر ورفضوا اتباع الرسول الذي أكرمهم به الله واتهموه بالكذب الأشرّ. وكذبت قوم لوط بالنذر، فأرسل الله عليهم حاصبا، أي وباء الجدري والحصبة، والحجارة والحصي..

ومن الغريب أن نلاحظ معنيان مختلفان لكلمة حاصبا. فهي تعني في لسان العرب المرض والحجارة. وما أشبه تلك الأيام بما نمر به اليوم مع وباء كورونا، نتيجة لابتعادنا عن الدين، وخاصة تقاعسنا عن الدفاع عنه ضد الهجمة الشرسة التي تحيط بنا، ويكيلها لنا الغرب الصليبي المتعصب، وخاصة تخاذلنا عن التعريف به لذلك الغرب والرد على هجماته وانتقاداته. ويكفينا حجة أن في أيدينا ثلث القرآن الكريم الذي يوضح فيه رب العالمين كيف حاد أصحاب الرسالتين السابقتين، اليهود والنصارى، عن رسالة التوحيد التي أكرمهم بها، وكيف حذرهم من الشرك بالله وألا يعبدوا إلا الله والا يشركوا به أحدا. بل ويكفينا ثلث القرآن تقريبا يكشف فيه ربي كل ما قاموا به من تحريف وتغيير لرسالة التوحيد، وتبديل للكلمات والقوانين في نصوصهم، واقترافهم الشرك بالله أو أن يجعلوا له ولدٌ سبحانه.

وفي كل مرة يُيسر الله كتابه للذكر. فهل من متذكر؟ لقد جاء آل فرعون وأتتهم النذر، فكذبوا بآيات الله، ويتواصل الكفر والإنكار وإصدار التهم والإدانات.. لذلك ليس من الغريب بعد كل ذلك العناد

من البشر أن يُرسل المولي عز وجل لكل هذه الأجناس التي تتوالى كموج البحر، يكرمها الله بالكتاب العزيز، وتأبي الموجة العاتية أن تتخلي عن صلفها.. نعم، ليس بغريب بعد كل ذلك أن نطالع آية نستحق الصفعة التي يكيلها لنا رب العزّة، إذ يقول سبحانه: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾} (**الكهف**).

ويا للعار! {أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}! يا لها من عبارة جد جارحة مريرة، بل مهينة لكل إنسان إن شَعَر وأدرك معناها.. فمثل ذلك الإنسان العنيد في عناده، ذلك الجبّار المتكبّر الذي بني الأبراج وناطحات السحاب ورسي على سطح القمر، لا يساوي في نظر الله سبحانه وتعالي إلا مجرد "شيء"، وأن هذا "الشيء" هو أكثر المخلوقات جدلا وعنادا..

والشيء هو ما لا مردود له، ولا حياة فيه، كالمنضدة أو المقعد أو فردة حذاء.. فهي عبارة تشير إلى كيان مجرد من أي معني إنساني. ثم ندرك من الآية أن ذلك "الشيء" الخالي من أي معني أو قيمة بسبب صلفه وجهله وعناده، هو أكثر المخلوقات جدلا ونقاشا لكلمات الله وتوجيهاته! ويا لها من صورة مخجلة، صورتنا أمام خالقنا.. إذ يقول ربي في سورة "**الإسراء**": {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾}.

أي أنه على الرغم من كل ما أكرمنا به الله من إمكانيات ومعارف ووسائل ومخلوقات، نتجاهل كل ذلك، نتجاهل رسالتنا الأساس، التي هي خلافة رب العالمين وعمارة الأرض، التي كلفنا بها المولي سبحانه، لنغرق في المعارك والتطاحن والتمسك بالملكيات والسيطرة، والحروب من أجل اعتصار الآخر والسيادة والتحكم.

بل الأكثر ألما ومرارة هو أن نتذكر السبب الذي من أجله خَلقنا ربنا سبحانه وتعالي، وهو عمارة الأرض وفلاحها. بل لو عدنا إلى سورة "**البقرة**" نطالع: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾}.

أي إن ألله سبحانه وتعالي أراد أن يوجد خليفة أو مسؤول في الأرض. بمعني من يقوم بعمارة الأرض وتنظيم شؤنها وزراعتها وفلاحها وتدبير أمورها. فلو تأملنا معني كلمة "خليفة" لوجدنا: خلّف فلانا: أي أخره وجعله خلفه. والخلافة هي: الإمارة والإمامة. والخليفة هو: المستخلَف، وهو السلطان الأعظم أي الأعلى سلطة بين البشر وبعد المولي سبحانه. ولو تأملنا كافة المخلوقات التي خلقها الله عز وجل على الأرض من جبال ووديان وأنهار ونباتات وحيوانات بمختلف أعدادها وأنواعها التي يصعب حصرها، لما وجدنا بينها ـ رغم أهميتها ـ مَن أو ما يمكنه أن يتولى شؤن عمارة الأرض وفلاحها إلا الإنسان ـ ذلك "الشيء" الأكثر جدلا.

ولو تأمل كل إنسان منّا ما قام به من تصرفات بعيدة عن تعاليم الله، وما اقترفه من ضياع أو استهتار بكل ما لديه مكتوبا واضحا في نص القرآن، لتضاءل حجمه وانكمش، أي حجم نفسه في نظر نفسه، ليصل إلى تلك الوصمة التي وَصَمْنا بها ربنا سبحانه وتعالي: أننا مجرد "شيء" يجادل في كل شيء..

القرآن في القرآن

يقول ربي في كتابه الكريم أنه لو أُنزل هذا القرآن علي جبل لرأيناه خاشعا متصدعا من خشية الله. والخشوع هو رمي البصر نحو الأرض، وغضه، وخفض الصوت مثلما سبق ورأيناه مع جزئية الجبل. فالخشوع يكون في البدن والصوت والبصر. وكأن الجبل كائن حيّ، وأنه من هول وزن ما أُنزل عليه من حمل ومسئولية، من معلومات وتوجيهات متعددة، قد تصدّع من خشية الله ومن معني كل ما أُنزل عليه.. كما رأينا من قبل.

ونطالع في سورة {**الإسراء**} أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، حتى لو كان بعضهم لبعض ظهيرا وسندا معاونا. فالرحمن أنزل القرآن من أم الكتاب الي السماء الأولي، ثم خلق الإنسان وعلمه البيان. وبذلك فإن تفصيل هذا الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. فهو كتاب هدي ورحمة للمؤمنين، يهدي للتي هي أقوم. إذ إن آيات

القرآن، ذلك الكتاب المتفرد المبين، هو هداية وبشرى للمؤمنين. ونعلم من بداية سورة البقرة أن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الذكاة. وإيمانهم بالغيب يجب أن يكون إلى درجة اليقين وكأنهم يرونه فعلا بأعينهم.

ويقول لنا ربي سبحانه: {هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾} (**الجاثية**). ولو تأملنا كلمة "نستنسخ" لوجدنا أن استنسخه تعني اكتتبه عن معارضة. وفي التهذيب: النسخ اكتتاب كتابا عن كتاب حرفا بحرف. والأصل نُسخةٌ. والمكتوب عنه نُسخة لأنه قام مقامه. والكاتب ناسخ. والاستنساخ لغة يعني: كتب كتابٌ من كتاب. أي إن ما نطالعه في هذه الآية {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} تعني أن الحفظة الكرام اللذان حدد لهما الله أن يرابطا عن يمين وعن يسار كل إنسان، يستنسخان أعماله على الدوام. أي أنهما يقومان بعمل نسخة طبق الأصل من أعمالنا بخيرها وشرها، لتُرفع إلى رب العالمين، لنحاسب بمقتضاها يوم الدين.

وقد أوضح المولي سبحانه أنه قد أنزل القرآن في شهر رمضان، هدي للناس وبيّنات من الهدي والتوضيح لما بين الخير والشر، والصواب والخطأ. واختيار هذا التوقيت التعبدي المبارك يؤكد أهمية الالتزام بذلك الجانب تحديدا. وهو في كل سورة يضمّنها سبحانه توضيحا للمؤمنين، وكأنه برنامج لحياتهم وتصرفاتهم وأخلاقياتهم ومعاملاتهم في مختلف المجالات والميادين. إذ لم يترك الله سبحانه كبيرة أو صغيرة إلا وقد أوضح كيفية التعامل معها أو بواسطتها.

فالقرآن برنامج أو دستور حياة، وتنظيم لمختلف قطاعات الحياة الدنيوية والأخروية. بما أن كل ما نقوم به في كل لحظة من لحظات حياتنا يقوم الملكان الكريمان، المكلفان باستنساخ أعمالنا، خيرها وشرها. وإن هذا الاستنساخ الغيبي والمطابق لأعمالنا هو الذي سنحاسب عليه. وأقول الغيبي لأن الجسد إلى التراب، أما الروح فإلى ربها. والنفس هي التي ستحاسب عن كل ما قامت به من خير أو شر في كل لحظة من لحظات حياتها.

ومن الغريب أن نطالع في تاريخ حياة البشر بالقرآن، أن الله سبحانه وتعالي لم يترك أمة إلا وأكرمها بنفس الرسالة والتوجيهات، التي توضح لهم ألا يعبدوا إلا الله، وألا يُشركوا به أحدا، وأن

يؤمنوا بالغيب، وأن يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم. إلا إن أكثر الناس لا يعبئون. وإن رأوا آية يعرضون عنها ويقولون سحر مستعر ويكذبون ما أكرمهم به رب العالمين ويتبعون أهواءهم.

وقد جاءتهم من الأنباء والحكَم البالغة ما يجعلهم يستقيموا ويلتزموا بتعاليم الله. فقد كذبت قوم نوح واتهموا الرسول الذي أتاهم بالجنون. وكذبت قوم عاد. فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. ومهما يسّر الله القرآن للذكر يواصل الناس انغماسهم في متاهات الدنيا.. وكذبت ثمود بالنذر ورفضوا اتباع الرسول الذي أكرمهم به الله واتهموه بالكذب الأشر. وكذبت قوم لوط بالنذر، فأرسل الله عليهم حاصبا، أي وباء الجدري والحصبة، والحجارة والحصي..

ومن الغريب أن نلاحظ معنيان مختلفان لكلمة حاصبا. فهي تعني في لسان العرب المرض والحجارة. وما أشبه تلك الأيام بما نمر به اليوم نتيجة لابتعادنا عن الدين، وخاصة تقاعسنا عن الدفاع عنه ضد الهجمة الشرسة التي تحيط بنا، وتخاذلنا عن التعريف به. ويكفي أن في أيدينا ثلث القرآن الكريم الذي يوضح فيه رب العالمين كيف حاد أصحاب الرسالتين السابقتين، اليهود والنصارى، عن رسالة التوحيد التي أكرمهم بها وكيف حذرهم من الشرك بالله وألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به أحدا. وما أكثر وأهم ما أوضحه ربي بالتفصيل عن انحرافهم عن التوحيد بالله.

وفي كل مرة يُيسر الله كتابه للذكر. فهل من متذكر؟ لقد جاء آل فرعون وأتتهم النذر، فكذبوا بآيات الله، ويتواصل الكفر والإنكار وإصدار التهم والإدانات.. لذلك ليس من الغريب بعد كل ذلك العناد من البشر أن يُرسل المولي عز وجل لكل هذه الأجناس التي تتوالى كموج البحر، يكرمها الله بالكتاب العزيز، وتأبي الموجة العاتية أن تتخلي عن صلفها.. نعم، ليس بغريب بعد كل ذلك أن نطالع آية نستحق الصفعة التي تكيلها لنا، إذ يقول ربي: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾} (**الكهف**).

" أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا"! يا لها من عبارة جد جارحة مريرة، بل مهينة لكل من يفهمها. فمثل ذلك الإنسان العنيد في عناده، لا يساوي في نظر الله سبحانه وتعالي إلا مجرد صفة "شيء"، وأن هذا

"الشيء" هو أكثر المخلوقات جدلا وعنادا. فالشيء هو ما لا مردود له، ولا حياة فيه، كالمنضدة أو المقعد.. عبارة تشير إلى كيان مجرد من أي معني إنساني.

ثم ندرك من الآية أن ذلك "الشيء" الخالي من أيّ معني، هو أكثر المخلوقات جدلا ونقاشا لكلمات الله وتوجيهاته! ويا لها من صورة، صورتنا أمام خالقنا.. بل يا لها من صفعة!

ويقول ربي في سورة **"الإسراء"**: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾}..

الوحي في القرآن

كلمة الوحي لغةً تعني الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك. ويقال: وَحَيْتُ إليه الكلام وأوحي. والوحي: المكتوب والكتاب. وأوحي إليه: ألهمه. وأوحي: أومأ. وأوحي إليهم، أي أشار إليهم. والوحي هو ما يوحيه الله إلي أنبيائه. ونطالع في القرآن الكريم: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾} **(الأنعام)**، أي يَسرُّ بعضهم إلى بعض. فهذا أصل الكلمة في لسان العرب، ثم قُصر الوحي للإلهام من الله. وكأن الوحي هو لغة الحوار بين الله سبحانه وكافة مخلوقاته ليلهمها بما هو مطلوب منها مباشرة أو عن طريق رسول. والتسبيح هو تعبير كافة الكائنات إجلالا لرب العزة واعترافا بربوبيته.

فكل شيء في الوجود يسبح لله، لكننا لا نفقه تسبيحهم. إذ تسبح له السماوات السبع وما ومن فيهن، والأرض وما ومن فيها. يسبح لله كل ما في السماوات وما في الأرض، والذين يحملون العرش ومَن حوله. فما من شيء في الوجود إلا يسبح بحمده لكننا لا نفقه تسبيحهم. لأن كل شيء في الوجود حيّ يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل. ولأن قواعد الخلق العامة واحدة. والدليل على قدرته عز

وجل تفرّد بصمة إصبع الإبهام في كل واحد من البشر. وقد تعدينا حاليا رقم السبعة مليارات نسمة تختلف بصمة إبهام كلا منهم!

وأن يسبح كل شيء في الوجود فذلك يعني أن كل شيء حيّ بدرجات متباينة وفقا لنوعية خلقه. لذلك نطالع يوم سأل ربي جهنم: "هل امتلأت؟" وترد جهنم قائلة: "هل من مزيد ؟!".. والليل يُقبل ويُدبر، والصبح يتنفس. بل لقد عرض ربي الأمانة علي السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. والأرض تحكي أخبارها بأن ربك أوحي لها أن تزلزل زلزالها. والحطمة، تلك النار الموقدة، التي تطلع على الأفئدة وكأنها تشعر وتري، وعلينا أن نتقيها لأن وقود اشتعالها من الناس والحجارة. أي إن حتى الحجارة سوف تحاسب على تقصيرها أو ربما على كفرها الذي لا نعرف عنه شيئا. بل حتى جثة الموءودة، جثة تلك الطفلة التي قُتلت ستَسأل بأي ذنب قُتلت؟!

فالله سبحانه وتعالي يوحي للملائكة ويكلفها بأعمال تقوم بها، كأن تثبّت اللذين آمنوا، أو أن يضربوا فوق أعناق الذين كفروا وأن يُضربوا منهم كل بنان. كما أوحي، جل في علاه، في كل سماء من السماوات السبع ما عليها أن تقوم به. والغريب أن نطالع: أوحي فيها وليس لها. وكأن الأمر وُضع فيها للتنفيذ سواء شاءت أم أبت.. وأوحي إلى الأرض، مثلما أوحي إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومن كل ما يعرشه الناس والطبيعة.

حتى الأنبياء أو البشر، ما كان لأحد منهم أن يكلمه الله إلا وحيا، أو من وراء حجاب، أو أن يرسل رسولا فيوحي له. ونطالع في سورة "**النحل**": {ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده} (2). وفي سورة غافر: {يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاقي} (15). وقد سُمي الوحي روحا لأنه حياة من موت الكفر، أو القرآن، أو جبريل.

ونطالع في القرآن الكريم كيف أوحي الله إلي سيدنا نوح أن يصنع الفُلك تحت رعايته ووحيه وأن يُدخل فيها من كل نوع إثنين.. بل أوحي له ألا يطلب من الله إنقاذ الذين ظلموا ومنهم ابنه، إبن نوح. كما أوحي له أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن فعلا فلا يبتئس بسبب الذين كفروا ولم يستجيبوا له.

كما أوحي الله إلي يوسف ليطمئنه وألا يخشى اخواته حين أجمعوا أن يضعوه في غياهب الجب. فأوحي له أنه سوف ينبئهم بما يفعلون. أي أن هناك أحداثا سوف تحدث ولن يموت في ذلك الجب.

ونعجب من قصة أم موسي حين أوحي لها أن ترضع ابنها، وإن خافت عليه أن تلقيه في اليم! وما من أم تستجيب طواعية لمثل هذا الطلب لولا إيمانها الشديد بقول الله سبحانه ألا تخاف ولا تحزن لأنه سوف يرده إليها ويجعله من المرسلين. ومنّ الله علي موسي وأنقذه من جريمة قتل اقترفها. وفي بلاغ مباشر لموسى قال الله: {وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي} (13/ طه) وألهمه بكل التصرفات التي قام بها من لقاء السحرة وإنقاذ شعبه بأن ضرب لهم طريقا في البحر فانفلق وكان كل فرق كالطود العظيم.

ونطالع في سورة **"النساء"** رسالة الله سبحانه إلى أهل الكتاب: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا علي الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته...} (17). فالكفر والشرك بالله هو أكثر ما أدانه الله وحرمه ورفضه رفضا قاطعا طوال نَص القرآن. فقد أوحي إلي مريم ما أوحي، والمسيح هو كلمة الله إلي مريم وروح منه مثلنا جميعا. ونطالع في سورة **"البقرة"** آية تكررت في نفس السورة مرتين حرفيا: {وأتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس} (87 و253). وقالوا بكفرهم اتخذ الرحمن ولدا سبحانه! بل جميعهم عبادٌ مكرمون: {لا يستبقونه بالقول وهم بأمره يعملون} (27/ **الأنبياء**).

وطوال نص القرآن الكريم لا نطالع إلا عبارة "عيسى بن مريم"، ليؤكد رب العزة أنه ليس إبن الله كما كفروا وجعلوه، ثم عدّلوا وبدلوا في نسبه وألقابه أو صفاته في مختلف المجامع ليجعلوه إلاها في مجمع نيقيا الأول سنة 325، ثم إبن إله، ثم جزءاً من ثالوث هو: الآب والابن والروح القدس، الأضلاع مختلفة مستقلة لكنها متساوية، والآلهة ثلاثة عددا لكنهم إلاه واحد فهما! ويا لها من معادلة حسابية لا يفقه أي شخص حقيقة هذه التركيبة الشيطانية حتى من أتباع أولئك الكفرة..

*** القرآن كائنٌ حيٌ**

من أجمل وأغرب الأوصاف التي أطلقها الله سبحانه وتعالي على كتابه العزيز وصْفه بأنه "روحٌ"، وكأن القرآن كائن حيّ، روح وجسد: روح تسري عبر الكلمات التي هي أحرف بمثابة جسد النص وكيانه. وقد وصفه الله قائلا إنه {رُوحا من أمْرنا} (55 **الشورى**). وكأن الله بذلك الوصف يضفي صفة الأنسنة على القرآن. مثلما أضفاها على كل ما خلق. فالقرآن كتاب نمسكه بأيدينا لنقرأ، وأن يُطلق عليه رب العزّة صفة "الروح" فذلك يؤكد أن القرآن كائن حيّ، روح وجسد يسرى نبض المعاني في ثنايا كلماته وعلى صفحته.. وكأن النص هو الجسد المادي المقروء، والمعني الذي يتضمنه النص هو الروح والمعلومة التي يبلغها لنا ربنا سبحانه وتعالي.

ولو تأملنا سورة "**الواقعة**" لرأينا بعد أن أقسم ربي بمواقع النجوم، وهو قسم جد عظيم، قال سبحانه: {أنه لقرآنٌ كريم/ في كتاب مكنون} (77 و78). فالقرآن هو النص المقروء بكل ما به من معان وتوجيهات، والكتاب هو الوعاء الذي يحتوي على النص ويحافظ عليه، أو بقول آخر: إن القرآن هو الروح والكتاب هو الجسد الذي يحتويه بين جنباته.

فالمعني كالروح تشبيها، وإذا ما حذفنا المعني من الآية يتحول النص إلى مجرد أحرف وكلمات تجريدية مجردة، مرصوصة بلا روح أو بلا حياة. فالروح هي سبب الحياة وإطلاق كلمة روح، أو وَصْف القرآن الكريم بأنه روحٌ يؤكد معني أن القرآن دستور حياة أمة الإسلام وروحها، وكيان حياتها. فهذه الأمة توجد بتمسكها بتعاليم القرآن وفهمه وتطبيق كل ما يحتوي عليه من أوامر وتوجيهات، وتنعدم كأمة من الوجود، كأمة متماسكة مترابطة كالبنيان المرصوص بابتعادها عن القرآن.

ويؤكد ربي سبحانه وتعالي لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾} (**الشورى**). والسراط المستقيم هو سراط الله، الذي له ما في

السماوات والأرض، والحُبُك التي تصل كل فرد منّا بالله عز وجل، فكل شيء مصاره إلي الله ومتصل به.

والروح هي سبب الحياة. فالحياة توجد بوجود الروح وتتوقف حين تُنزع عنها. والروح يقينا من أمر ربي، فذلك ما نطالعه عند خلق الإنسان: {ثم سوّاه ونَفَخ فيه مِنْ روحه} (9/ **السجدة**)، {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾} (**الحجر**)، وتكررت نفس الآية حرفيا في 72/ "**ص**": {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾}. وقد طلب الله عز وجل من الملائكة أن يسجدوا لآدم عندما خلقه، تكريما له، فسجدوا إلا إبليس. والقرآن، كتاب الله، يأمرنا أن نسجد لله سبحانه ونحن نصلي، وعند علامات السجود... وسبحان من خَلْقه يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل..

ويقول المولي سبحانه لرسوله الكريم: {كتاب أنزلناه إليك مباركٌ وليتدبروا آياته أولوا الألباب} (29/**ص**). وكأن الكتاب لعامة الناس، وبصفة خاصة لأولي الألباب. ومن البديهي أن الكتاب الكريم لكل مسلم، وللجميع، لجميع خلق الله. إلا أن الواو في عبارة "وليتدبروا آياته أولوا الألباب"، بصفة خاصة، تلفت النظر. لأن التدبر أوسع مجالا من مجرد الفهم والتفسير، إذ انه يتضمن من ناحية فهم معرفي ولغوي عقلاني، ومن ناحية أخري فَهْم إيماني قلبي، إن أمكن القول، إضافة الي ما يلهمه رب العزة من نور ومفاتح لآفاق ومعان جديدة. لذلك أشار الله الي أهمية القلب حين وجه خطابه لسيدنا محمد قائلا:

* {.. فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾} (**البقرة**). أنزله علي قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس على عقله. فالقلب أكثر أهمية وأكثر شعورا من العقل، بل هو الذي يحرك العقل ويصدر إليه الأوامر حتى وإن خالف ذلك المعلومة الطبية. وقد تناولت هذه الجزئية بالتفصيل في بحث "**الغيب في القرآن**".

ولو تأملنا أي كتاب من الكتب، نجد أن صفحاته تمتد وتتواصل معبّرة ضمنا عن المعاني والقيم التي يتضمنها كبنيان نتصفح أجزاءه. وتتوالى الصفحات بكل ما بها من معلومات محَدّدَة ومعاني

كوحدة مستقلة بذاتها. والكتاب، أي كتاب، كنَص منتهي محدد الشكل، يفترض فكرة وجود مَن كتبه، فهو الوحيد الذي يعرف تفاصيل كتابه. والقرآن الكريم نعلم يقينا مَنْ أبدعه سبحانه، لكن أن تكون له روحا ويكون النَصّ حيا ينبض بالمعاني، فهي إضافة إلهية لكتابه الكريم، تلزمنا بأن نتدبره فعلا وحقا وإلا لما أدركنا معني تنزيله.

وأول ما يجب علينا أن نتأمله ونتدبره هو حقيقة قول ربّي أنه أنزله علي قلب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. ولو تأملنا فعل الله سبحانه وتعالي في القلوب من خلال نص القرآن لوجدنا معلومات جد مبهرة. فقلب الإنسان على أنواع ودرجات، فهناك غليظ القلب المتكبر، بل المتكبر الجبّار، والآثم قلبه، ومن في قلبه مرض، وهناك من يختم الله علي سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة. ويطبع الله علي قلوب المعتدين، وعلى قلوب الذين لا يعلمون. وهنك من قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وهناك القلب السليم، ومن يطمئن قلبه بذكر الله، فإنها من تقوي القلوب. ونجد من لهم قلوب يعقلون بها، والمؤمنون الذين أنزل الله السكينة في قلوبهم. بل ومن تصغي قلوبهم وتطمئن بالقرآن وكأن هناك حوار يجري بينها وبين النص الكريم وما يشعّه من نور، ومن زيّن الله حب الإيمان في قلوبهم، ومن إذا ذُكر القرآن وجلت قلوبهم. ومن أتي الله بقلب سليم.

فمن الواضح أن الله يحول بين المرء وقلبه، فنجد من جعل الله قلبه يطمئن بالإيمان، وأن من يؤمن بالله يهد قلبه. مثلما ذرأ الله سبحانه لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها.

ولو تأملنا أسماء القرآن الواردة في نفس نَصّ الكتاب، لوجدناها خمس وخمسون اسما، منها أسماء من أسماء الله الحسني. وإن زدنا في التأمل ومحاولة الفهم لرأينا أنه يمكن تصنيفها وتقسيمها إلى أربعة أقسام هي:

1: كلمات عبارة عن وصف: فهي مجرد وصف لصفة معيّنة لهذا النَص الإلهي: الكتاب، القرآن، الكلام، الفرقان، الزبور، الموعظة، الشفاء، الذكر، الحكمة، البشري، النبأ العظيم، البلاغ، المثاني، المتشابه، أحسن الحديث، البيان، العلم، القصص، الصحف، الصحف المكرمة، القول الفصل؛

2: كلمات عبارة عن صفة لهذا النص: المبين، النور، الهدي، الرحمة، الشفاء، الحبل، السراط المستقيم، القيّم، العربي، الحق، الصدق، العدل، النبأ العظيم، أحسن الحديث، البصائر، العجب، المجيد، العروة الوثقي، الأمر؛

3: كلمات عبارة عن أنسنه، أي أنها تضفي صفة إنسانية على هذا النص الإلهي: الكريم، المبارك، العليّ، الحكيم، المهيمن، البشير، النذير، الهادي، المنادي، العزيز؛

4: كلمات متعلقة بالغيب: التنزيل، الروح، الوحي.

أي إنه ليس بغريب أو من قبيل المبالغة أن نطلق على القرآن الكريم عبارة أنه كائن حيّ، فهو حيٌ فعلا ببركة الله وحمايته له سبحانه. وهو حيّ بدوام معاني ما يُبلغه لنا من توجيهات، وما يفتحه لنا من آفاق.

محمد في القرآن

ليس من المبالغة في شيء لو قلتُ إن حياة سيدنا محمد صلوات الله عليه قد هُريَت بحثا وتحليلا، وأنها من أكثر السيَر الإنسانية دراسة وتنقيبا وانتشارا، حتى بات الأمر وكأنه قد اكتمل ولا يوجد ما يمكن إضافته. وبتلخيصها في كليمات معدودة يمكن قول: "إنسان يتيم، أمّي لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه أمينٌ".. كان أمينا إلى درجة أن أصبح اسمه "الأمين"، بل هو الاسم والصفة. إنسان أمين يجمع كل صفات هذه المنحة الإلهية المتفردة. فكان يشع الأمان ويعيش الأمانة.. فالأمن ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة. والإيمان ضد الكفر، الإيمان بمعني التصديق وضد الكذب.. فكان

الأمين المؤتمن. بل لقد وصلت أمانته إلى درجة من الصدق بحيث اختاره الله عز وجل لحمل أمانة الرسالة وتبليغها. إذ يقول ربي سبحانه:

{رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاقي (15)} **(غافر)**. أي إن ربي سبحانه وتعالي يختار من يشاء لأداء رسالة ما. وقد تم اختيار سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لأمانته وتم تحميله أمانة تبليغ رسالة الإسلام، وقام بها علي أكمل وجه..

ولم يتقبّل الناس أن يختار الله عز وجل رجلا منهم لكي يوحي له أو يكلفه بأن ينذر الناس ويبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم. فاتهمه الكافرون بأن ما يقوله سحر مبين، وإن هذا إلا أساطير الأولين، بل قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة، وإن هذا إلا إفك افتراه، كما قالوا لا تستمعوا لهذا القرآن والغوا فيه. بل تمنوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة! إن هذا لساحر مبين. هذا ساحر كذاب، وساحر يسحر القوم بكلامه. بل قالوا إنه مجنون، ومعلم مجنون. وقالوا إن به جنّة وافتري علي الله كذبا، بل جعلوا بينه وبين الجنّ نسبا. لذلك وصفهم الله عز وجل مؤكدا: {أولئكَ هُم الكَفَرَة الفَجَرَة} (42/ **عبس**).

والكفر نقيض الإيمان، وجحود النعمة. ومغطي على قلبه. والجمع كفّار وكفرة. والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به؛ كفر جحود؛ كفر معاندة؛ وكفر نفاق. ومن لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له. والكفر على وجوه: كُفر من يشرك بالله ويتخذ معه إله آخر؛ وكفر بكتاب الله ورسوله؛ وكفر بادعاء ولد لله؛ وكفر مدّعي الإسلام. والكافر كافراً لأن الكفر غطي قلبه.

أما الفُجر فمن معانيه: أفْجر الرجل إذا كذب، وإذا عصي وإذا كفر. وفَجَرَ الإنسان فجْراً وفجوراً: انبعث في المعاصي. والفجّار جمع فاجر وهو المنبعث في المعاصي والمحارم. والفُجر معناه الكذب. وفجر فجورا أي فسق. والمكذب فاجر والكافر فاجر لميلهم عن الصدق والقصد. والفجور: الريبة. والكذب من الفجور.

وحيال هذه التهم الموجهة لسيد الخلق، دافع عنه رب العزة وطمأنه وأوضح له أنه سبحانه يقص عليه أحسن القصص، وأوحي إليه هذا القرآن، وإن كان من قبل لمن الغافلين. ويا لكرم المولي، مجرد عبارة: "من الغافلين". فذلك الإنسان الأمين المؤتمن لم يكن به أي عيب في نظر رب العالمين إلا "الغَفْلة" عن شيء لم يكن موجودا فكل من حوله كفرة وملحدون.. لذلك اختاره الله، اختار أكثر الناس أمناً وأمانة من بين كل المحيطين به. اختار الإنسان الأمين. ويقول ربي:

{وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾} (**الشورى**).

وتقودنا هذه الآية التي أوضح رب العزة فيها أنه أوحي إلى رسوله الكريم "روحا" من أمره سبحانه وتعالي، وأن الرسول، صلوات الله عليه، لم يكن يدري "ما الكتاب ولا الإيمان". وتتواصل الآية دون توقف. لذلك يؤكد المعني أن كلمة "روحا" هنا في هذه الآية تحديدا مقصود بها القرآن، وأن كلمة "الروح" هي أحد أسماء القرآن، بدليل نفس هذه الآية التي بها "أوحينا إليك روحا" تقول بقيتها: {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان}.

كما ترتبط وتشير لنا نفس هذه الآية إلى سورة "**الإسراء**" والآية 85 بها، التي يكاد النص فيها يتطابق، حيث يقول الله لرسوله الأمين:

* {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}. فالروح أحد أسماء القرآن، والقوم ليس لديهم من العلم إلا قليلا. وكل الآيات التي سبقت هذه الآية أو أتت بعدها، وهي حوالي عشر آيات، تؤكد أن الكلام فيها متعلق بالكتاب العزيز. وهو ما أوضحته في بحث "**الغيب في القرآن**". كما يؤكد معني هذه الآية معني الآية التالية:

* {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾} (**الإسراء**). ومن الواضح أن: "أوحينا إليك" هنا تعني القرآن. وهو ما يؤكده أيضا ما نطالعه في الآيات التالية:

* {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا... ﴿٧﴾} (**الشورى**)؛

* {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ... ﴿٣١﴾} (**فاطر**)؛

وخلاصة القول، أو ما نخرج به هنا، من هذه الآيات، سواء أكانت الكلمة المستخدمة "روحا"، أو "الكتاب"، أو "القرآن"، فإن المقصود واحد يقينا وهو: القرآن. لأن الروح في حد ذاتها كروح لا توحي وإنما يُوحَي إليها، أي إن الروح توَجّه وَحْيا، لأنها كائن حيّ وجزء من روح الله سبحانه كما نطالعه في سورة {ص} (72): {فإذا سَوّيتَه ونَفَخْت فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين}، وفي سورة "**الحجر**" (29): {فإذا سَوّيتَه ونَفَخْت فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين}. وتكرار الآية من رب العالمين يعني تأكيد التأكيد. وهو ما نطالعه أيضا في كل ما كُتب علميا عن الروح في القرنين الماضيين.

وهنا لا بد من الإشارة إلى ضرورة العودة إلى ذلك المجال، مجال الروح ودراسته والإيمان به، مثلما كان العرب يؤمنون به أيام الرسالة. وهو ما نطالعه في قاموس "**لسان العرب**"، المجلد الرابع، صفحة 77، بوضوح تحت كلمة "**الرجعة**":

"مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم؛ ومذهب طائفة من فرَق المسلمين من أُولي البدع والأهواء، يقولون: إن الميت يرجع إلى الدنيا ويكون فيها حيّا كما كان". وأتوقف عند هذا القدر فالاستشهاد يأخذ صفحة كاملة تقريبا في القاموس، وشرحه بعد هذا الوصف الدقيق متحيّز وغير علمي في حدود معلوماتي وكل ما قرأته عن المجال الروحي في العصور الحديثة.. بل شرحه للآيات الشديدة الوضوح غير دقيق، لكيلا أكتب غير أمين. وكل ما يعنيني من هذه الجزئية هو إن فكرة إعادة التجسد كانت سائدة أيام العرب، مثلما كانت سائدة في حضارة المصريين القدماء وغيرها من الحضارات.

وتحريم وجود المجال الغيبي وإعادة تجسد الروح، كما هي واردة في العديد من الآيات في القرآن، أرى أنه فعل فاعل يُدرك معني ما يقوم به، إذ أن هذا الإلغاء يَخلّ بفكرة الخليقة وبكل ما هو وارد بوضوح في القرآن عن الروح وإعادة التجسد بل إن هذا المجال تحديدا هو الذي يثبت أن القرآن وحيٌ من عند الله، وقد تناولته في بحثي "**الغيب في القرآن**"، و"**الحُبُك في القرآن**". وهو ما

أوجزته في البحثين بمعني إن إلغاء المجال الغيبي من القرآن يعني إلغاء الإسلام نفسه. وذلك هو ما يحاوله الكفرة منذ بدء الرسالة حتى يومنا هذا.

وهو نفس الشيء الذي حدث في مجال الفن وتحريم الفن. وقد تناولت هذه الفكرة في بحث بعنوان "**تحريم الفن في الرسالات الثلاثة**". ولا أشير هنا إلا إلى معلومتين شهيرتين باقتضاب: إحداهما: "كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي وأمامه ستارة عليها نقوش، فطلب من السيدة عائشة أن تنزعها لأن الرسومات أو النقش الذي عليها يشغله عن الصلاة. ولم يقل لها أنها حرام، وإنما "تشغله عن الصلاة". فأخذتها السيدة عائشة وصنعت منها خداديتان". فلو الرسم أو النقش الذي على ذلك النسيج حراما لما جرأت السيدة عائشة علي الاحتفاظ بها وتعملها خدادية.

والواقعة الثانية متعلقة بتحريم الموسيقي. وكل من قرأ في التاريخ الإسلامي أو السيرة طالع بكل تأكيد أن سيدنا رسول الله، عليه الصلاة والسلام، كان يرفع السيدة عائشة الي مستوي ارتفاع الشباك لتشاهد الفرق الموسيقية وهي تعزف. وإن كانت الموسيقي حراما لما كان مثل هذا التصرف الإنساني من الرسول الكريم.

وما خرجت به من بحثي حول تحريم الفن في الإسلام، أن من أصدر هذا القرار هو يزيد بن عبد الملك، وكان مستشاره يهوديا.. وليفهم من يريد أن يفهم لمعالجة مثل هذه التدخلات التي تمس بالإسلام، فلا يجب ولا يجوز لنا الاستعانة بمن أطلق عليهم ربي {الكفرة الفجرة} في كل ما يتعلق بالدين أو يمسه من قريب أو بعيد.

اتّهام نبينا الكريم

عودة إلى اتهامات الكفرة الفجرة لسيدنا محمد، صلوات الله عليه، وكل ما كالوه له من تُهم وسبّ وسخرية، بل ومحاولات إهانة أو اغتيال، نتوقف عند جزئيتين لتناولها بشيء من الإسهاب: مقولة "أنه ساحر"، وأن "بينه وبين الجنّ نسبا"، والعياذ بالله. وإن كانت التهمتان تصبّان في مجال واحد تقريبا هو مجال الجن. وهذه أهم علاقة غير سوية أو تحذير صارم نطالعه في القرآن ويحذّرنا

منه ربنا سبحانه وتعالي أن تقام بين الجن والبشر. والجن يبذل ما في وسعه لإغراء البشر ويفتنهم عن الطريق المستقيم، والبشر عليهم أن يختاروا الحلال ويبعدوا عن الحرام، خاصة لو تذكرنا لحظة طرد آدم من الجنة: الإنسان عليه الالتزام بكلام الله سبحانه وألا ينجرف لإغراء الشيطان..

وبما ان الموضوع متعلق برسولنا الأمين وبكتاب الله سبحانه، فلا بد من الرجوع إلى سورة **"الجن"** لبحث الموضوع كما هو معروض، علّنا نجد ما يعاوننا على فهم معالم غير واضحة. وأبدأ بنفس الآية إذ يتواصل مضمونها حتى يومنا هذا بإصرار أكمه الإلحاح. إذ تقول الآية: {وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾} **(الإسراء)**. أي أنهم، أولئك الكفرة الفجرة، يضغطون علي الرسول الأمين أن يقوم بتغيير نص القر آن الكريم! وهو ما زالوا يحاولونه حتى يومنا هذا.. ويا له من إصرار أكمه ذلك الذي يمتد من القرن الرابع عشر، أيام تبليغ الرسالة، حتى القرن الواحد والعشرين، بنفس المطلب: تغيير نص القرآن الكريم، متعامين عن إن الله سبحانه وتعالي هو الذي أنزله وهو سبحانه الذي وعد بحفظه.

وتقول الآية التالية لها: {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾} **(الإسراء)**. أي ان الرسول صلوات الله عليه، كاد يميل قليلا لمطالب الكفرة الذين كانوا يطالبونه بتعديل نص القرآن علي أمل اقناعهم.. وإن كان لهذه الملاحظة من معني فهو، بكل أسف، تقصيرنا نحن، تقصيرنا الذي لا يوصف في حق الإسلام ورسوله والتعريف بالإسلام والوقوف كالبنيان المرصوص في مواجهة مختلف محاولات ذلك الغرب الصليبي المتعصب.

الإنسان، ذلك "الشيء"

أكرم الله سبحانه وتعالي الإنسان وخصه بسورة كاملة تحمل اسمه، هي السورة رقم 76، وتتضمن إحدى وثلاثون آية. ويبدأها المولي عز وجل بأنه أتي على الإنسان حينا من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. أي أنه كان في عالم الغيب، مجرد طاقة غير محددة المعالم. وعندما خُلق ذلك

الإنسان، جعله ربي سميعا بصيرا وهداه السبيل، أي أوضح له الطريق: إما مؤمنا شاكرا وإما كفورا.

وقد أعد الله سبحانه للكافرين سلاسل وأغلال وسعيرا. أما المؤمنون فوقاهم عذاب يوم الحساب، وأنعم عليهم بالجنة، حيث لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، بل فيها نعيما ومُلكا كبيرا. وبعد أن أوضح ربي الحال التي ستكون عليها الجنة التي سينعم بها من كانوا يُطعمون الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا، دون طلب أي مقابل منهم. ويتواصل التعريف بالجنة بمزيد من التفصيل، بما ستكون عليه الحياة بالنسبة لهذه المجموعة من البشر المتقين، الذين آمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله، وآمنوا بما أنزله سبحانه، ويوقنون حقا بالآخرة.

ثم يتوجه الخطاب/الوحي إلى سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، موضحا: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾} (**الإنسان**). واستخدام صيغة المفعول المطلق لكلمة التنزيل تؤكد لغةً أن القرآن قد أُنزل فعلا ويقينا من رب العالمين تنزيلا حقيقيا. والسبب في أن الله سبحانه يحدد لرسوله الكريم، بعد هذه الآية، أن يصبر وألا يطع منهم، من الكفرة، آثما أو كفورا، هو ان هؤلاء القوم الكفرة، يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا، هو يوم الحساب. بل لقد أشركوا بالله عز وجل وجعلوا له ابنا سبحانه، بل قاموا بتأليه ذلك الابن، ثم جعلوه ثالوثا متساوي الأضلاع، كل ضلع منفصل مستقل بذاته، والثلاثة أضلاع تساوي واحد! ويبتلعها الأتباع رغم عدم منطقها بل وكُفرها. وقد أعد الله عز وجل للظالمين عذابا أليما.

وترد كلمة الإنسان في القرآن 57 مرة في آيات تستعرض، في تداخل دقيق، نشأته وتكوينه ونفسيته وهلعه بل وتذبذب تصرفاته واختياراته.. ونطالع أن المولي سبحانه قد خلق الإنسان ضعيفا، من صلصال من حمأ مسنون، إذا مسه الضُر دعا ربه، وعندما يكشف عنه الضُر يمر وكأنه لم يدع ربه لإنقاذه! وإذا أذاقه الله رحمة ثم نزعها إذا به ييأس ويكفر! وعلي الرغم من أن ربنا جل في علاه قد أتاه من كل ما سأله، بحيث لو عدّ ذلك الإنسان نعم الله عليه لا يمكنه حصرها. والغريب أن يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير، وكأن الاثنان يتساويان. أو كأنه لا يقوم بالتمييز بينهما أو

أنه سبحانه وتعالي لم يوضح له أن يصرف من العفو.. العفو عن كل من ظلمه أو أذاه فالحساب عند الله عز وجل.

كما نطالع إن الله سبحانه قد أوصي الإنسان بوالديه إحسانا، وأن يرعاهما كما ربياهُ صغيرا، وأن يطعهما وألا يقل لهما أُفٌ، إلا إذا جاهداه ليشرك بالله. فالشرك بالله سبحانه مرفوض بطول الكتاب وعرضه وفي كل المجالات التي يتناولها، حتى عند خلق السحاب!

غير أن أكثر ما يلفت النظر في هذه الآيات التي تصف الإنسان، في السورة التي أكرمه بها المولي، فهو تساؤل الإنسان ذلك السؤال الغريب: {وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾} (**مريم**). أَولا يذكر ذلك الإنسان ان الله قد خلقه من قبل ولم يكن شيئا؟ إذ يقول ربي: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾} (**الحج**).

أي إن من لا يدرك معني المجال الغيبي في القرآن ولا يؤمن به يُعد كافرا في حكم ربي. فهي آيات تتناول دَوْرة التجسد وإعادة التجسد، وقد تناولتها بالتفصيل في بحث "**الغيب في القرآن**". وعلي الرغم من كل ما نطالعه من آيات واضحة في هذا المجال، أيحسب الإنسان أن الله لن يجمع عظامه أو أنه سبحانه سيتركه سُدي؟ ويوم الحساب يقول ربي: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾} (**الفجر**).

وتستوقفنا الإشارة الخاطفة المتعلقة بجهنم، وأنه "جيء بها"، فهي تشير وتعني أن النار أو جهنم ليست ثابتة في مكان واحد حيث تشتعل، وإنما هي وكأنها من نوع ما، أو من مادة يمكن أن يستحضرها الله ويأتي بها من مكان لمكان أينما شاء سبحانه. فمن الواضح ان مادتها ليست مادية بمفهومنا نحن للنار وتكوينها المادي، وإنما هي نارٌ أثيرية، مثلها مثل المكان الذي توجد فيه بل ومثل كل شيء فيه.. وأمام هذه النار، التي لا ترحم، يتذكر الإنسان.. وأنّي له الذكري، فما جدوى الذكري بعد فوات الأوان..

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وعلمه الأسماء كلها، وهداه السبيل كما رأينا. أي أن يكون مؤمنا أو كافرا وفقا لاختياراته. وعلّمه ما لم يعلم، لكن الإنسان يطغي.. فعلي سبيل المثال، إذا

زلزلت الأرض زلزالها، تساءل في هلع جهله: "ما لها؟".. وكأنه لا يعلم أن الله سبحانه يأمر ويحرك ويوحي أو يُبدل كل شيء كما شاء.

وتنتهي الآيات التي يرد فيها اسم الإنسان في القرآن بآية واضحة تحدد المعالم لمن يفهم ويعي التحذير الإلهي: {إن الإنسان لفي خُسُر/ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالصبر وتواصوا بالحق} (2 و3 / العصر). وكأن الخسارة في تواصل واستمرار طالما لم يفهم..

ولو تأملنا إن الله الذي أحسن كل شيء خلقه، قد بدأ خلق الإنسان من طين، من سلالة من طين، من صلصال من حمأ مسنون، من صلصال كالفخار. وخلق الإنسان من نطفة، من نطفة أمشاج، وجعله في أحسن تقويم. فجعل له عينين ولسانا وشفتين. وجعله سميعا بصيرا. وعلمه عز وجل ما لم يعلم. ويوضح لنا هذا الترتيب في الخلق أهمية السمع والبصر واللسان كوسيلة اتصال وتواصل مع العالم الخارجي المحيط بالإنسان، وأهمية الرؤية والسمع في الحوار مع من حوله، وإلا لانعزل الإنسان عن كل ما يحيط به وقَبَعَ في صمت صموت.

كما رأينا أن الله قد بيّن له النجدين، أي السبيل إلي الخير والشر. الأمر الذي يؤكد أهمية الاختيار في حياة الإنسان، منذ بدأ خلق آدم وطرده من الجنة. إذ خُلق الإنسان ضعيفا وفي كبد.. إذا مسه الضُر دعي ربه لينقظه، وعندما يكشف عنه الضرر يواصل ما كان عليه وكأنه لم يكن، أو كأنه لم يدعُ ربه أو لم يستجير به ويرجوه..

ولم يدرك ذلك الإنسان أن الاختيار من أهم المحاور في حياته إن لم يكن أهمها، فهو المحور الأساس الذي تقوم عليه كل تصرفات الإنسان في مختلف خطواتها.. ويا له من "شيء" ذلك الذي لم يفهم بعد أهمية وجلال أن الله قد خلقه من روحه وبيديه كما نطالع في سورة {**ص**}، وافهمه وحيا أهمية الاختيار، ليجعل منه خليفة! فالخلافة لعمارة الأرض هي الوظيفة التي خُلق من أجلها.. عمارة الأرض، وليس إتلافها وخرابها والتطاحن والتكالب من أجل امتلاكها والتحكم فيها وفقا للأهواء.

الفصل الثاني
القرآن والوحيّ

*** القرآن كائنٌ حيً**

من أجمل وأغرب الأوصاف التي أطلقها الله سبحانه وتعالي على كتابه العزيز وصْفه بأنه "روح". وكأن القرآن كائن حيّ، روح وجسد: روح تسري عبر الكلمات التي هي أحرف بمثابة جسد النص وكيانه. وقد وصفه الله قائلا إنه {رُوحا من أمْرنا} (55 الشورى). وكأن الله بذلك الوصف يضفي صفة الأنسنة على القرآن. فالقرآن كتاب نمسكه بأيدينا لنقرأ، وأن يُطلق عليه رب العزّة صفة "الروح" فذلك يؤكد أن القرآن كائن حيّ، روح وجسد يسرى نبض المعاني في ثنايا كلماته وعلى صفحاته.. وكأن النص هو الجسد المادي المقروء، والمعني الذي يتضمنه النص هو الروح والمعلومة التي يبلغها لنا ربنا سبحانه وتعالي.

ولو تأملنا سورة "الواقعة" لرأينا، بعد أن أقسم ربي بمواقع النجوم، وهو قسم جد عظيم، قال سبحانه: {أنه لقرآنٌ كريم/ في كتاب مكنون} (77 و78). فالقرآن هو النص المقروء، والكتاب هو الوعاء الذي يحتوي على النص. أو بقول آخر: إن القرآن هو الروح والكتاب هو الجسد الذي يحتويه ين جنباته.

فالمعني كالروح تشبيها، وإذا ما حذفنا المعني من الآية يتحول النص إلى مجرد أحرف وكلمات تجريدية، مرصوصة بلا روح أو بلا حياة. فالروح هي سبب الحياة وإطلاق كلمة روح، أو وَصْف القرآن الكريم بأنه روحٌ يؤكد معني أن القرآن دستور حياة أمة الإسلام وروحها، وكيان حياتها، فهي توجد بتمسكها بتعاليم القرآن وفهمه وتطبيق كل ما يحتوي عليه من أوامر وتوجيهات، وتنعدم كأمة بابتعادها عن القرآن.

ويؤكد ربي سبحانه وتعالي لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾} (**الشورى**). والسراط المستقيم هو سراط الله، الذي له ما في السماوات والأرض، والحُبُك التي تصلنا بالله عز وجل، فكل شيء مصاره إلي الله.

والروح هي سبب الحياة، والحياة توجد بوجود الروح وتتوقف حين تُنزع عنها الروح. والروح يقينا من أمر ربي، فذلك ما نطالعه عند خلق الإنسان: {ثم سوّاه ونَفَخ فيه مِنْ روحه} (9/ السجدة)، {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾} (الحجر)، وتكررت نفس الآية حرفيا في 27/ ص: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾}. وقد طلب الله عز وجل من الملائكة أن يسجدوا لآدم عندما خلقه، تكريما له، فسجدوا إلا إبليس. والقرآن، كتاب الله، يأمرنا أن نسجد لله سبحانه ونحن نصلي، وعند علامات السجود... وسبحان من خَلْقه يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل..

ويقول المولي سبحانه لرسوله الكريم: {كتاب أنزلناه إليك مباركٌ وليتدبروا آياته أولوا الألباب} (29/ص). ومن البديهي أن الكتاب الكريم لكل مسلم، وللجميع، لجميع خلق الله. إلا أن الواو في عبارة "وليتدبروا آياته أولوا الألباب"، بصفة خاصة، تلفت النظر. لأن التدبر أوسع مجالا من مجرد الفهم والتفسير، إذ انه يتضمن من ناحية فهم معرفي ولغوي عقلاني، ومن ناحية أخري فَهْم إيماني قلبي، إن أمكن القول، إضافة الي ما يلهمه رب العزة من نور ومفاتح لآفاق ومعان جديدة. لذلك أشار الله الي أهمية القلب حين وجه خطابه لسيدنا محمد قائلا: {.. فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾} (**البقرة**). أنزله علي قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس على عقله. فالقلب أكثر أهمية وأكثر شعورا من العقل، بل هو الذي يحرك العقل ويصدر إليه الأوامر. وقد تناولت هذه الجزئية بالتفصيل في بحث "**الغيب في القرآن**".

ولو تأملنا أي كتاب من الكتب، نجد أن صفحاته تمتد وتتواصل معبّرة ضمنا عن المعاني والقيم التي يتضمنها كبنيان نتصفح أجزاءه. وتتوالى الصفحات بكل ما بها من معلومات محددة ومعاني

كوحدة مستقلة بذاتها. والكتاب، أي كتاب، كنَص منتهي محدد الشكل، يفترض فكرة وجود من كتبه، فهو الوحيد الذي يعرف تفاصيل كتابه. والقرآن الكريم نعلم يقينا مَنْ أبدعه سبحانه، لكن أن تكون له روحا ويكون النَصّ حيا ينبض بالمعاني، فهي إضافة إلهية لكتابه الكريم، تلزمنا بأن نتدبره فعلا وحقا.

وأول ما يجب علينا أن نتأمله ونتدبره هو حقيقة قول ربّي أنه أنزله علي قلب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. ولو تأملنا فعل الله سبحانه وتعالي في القلوب من خلال نص القرآن لوجدنا معلومات جد مبهرة. فقلب الإنسان على أنواع ودرجات، فهناك غليظ القلب المتكبر، بل المتكبر الجبّار، والآثم قلبه، ومن في قلبه مرض، وهناك من يختم الله علي سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة. ويطبع الله علي قلوب المعتدين، وعلى قلوب الذين لا يعلمون. وهنك من قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وهناك القلب السليم، ومن يطمئن قلبه بذكر الله، فإنها من تقوي القلوب. ونجد من لهم قلوب يعقلون بها، والمؤمنون الذين أنزل الله السكينة في قلوبهم. بل ومن تصغي قلوبهم وتطمئن بالقرآن وكأن هناك حوار يجري بينها وبين النص الكريم، ومن زيّن الله حب الإيمان في قلوبهم، ومن إذا ذُكر القرآن وجلت قلوبهم. ومن أتي الله بقلب سليم.

فمن الواضح أن الله يحول بين المرء وقلبه، فنجد من جعل الله قلبه يطمئن بالإيمان، ومن يؤمن بالله يهد قلبه. مثلما ذرأ الله سبحانه لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها.

ولو تأملنا أسماء القرآن الواردة في نفس نَصّ الكتاب، لوجدناها خمس وخمسون اسما، ومنها أسماء من أسماء الله الحسني. وإن زدنا في التأمل ومحاولة الفهم لرأينا أنه يمكن تصنيفها وتقسيمها إلى أربعة أقسام لوجدنا:

1: كلمات عبارة عن وصف: مجرد وصف لصفة معيّنة لهذا النَص الإلهي: الكتاب، القرآن، الكلام، الفرقان، الزبور، الموعظة، الشفاء، الذكر، الحكمة، البشري، النبأ العظيم، البلاغ، المثاني، المتشابه، أحسن الحديث، البيان، العلم، القصص، الصحف، الصحف المكرمة، القول الفصل؛

2: كلمات عبارة عن صفة: المبين، النور، الهدي، الرحمة، الشفاء، الحبل، السراط المستقيم، القيّم، العربي، الحق، الصدق، العدل، النبأ العظيم، أحسن الحديث، البصائر، العجب، المجيد، العروة الوثقي، الأمر؛

3: كلمات عبارة عن أنسنه، أي أنها تضفي صفة إنسانية على هذا النص الإلهي: الكريم، المبارك، العليّ، الحكيم، المهيمن، البشير، النذير، الهادي، المنادي، العزيز؛

4: كلمات متعلقة بالغيب: التنزيل، الروح، الوحي.

أي أنه ليس بغريب أو من قبيل المبالغة أن نطلق على القرآن الكريم عبارة أنه كائن حيّ، فهو حيٌ فعلا ببركة الله وحمايته له سبحانه.

القرآن في القرآن

يقول ربي في كتابه الكريم أنه لو أُنزل هذا القرآن علي جبل لرأيناه خاشعا متصدعا من خشية الله. والخشوع هو رمي البصر نحو الأرض، وغضه، وخفض الصوت. فالخشوع يكون في البدن والصوت والبصر. وكأن الجبل كائن حيّ، وأنه من هول وزن ما أُنزل عليه من حمل ومسئولية، من معلومات وتوجيهات متعددة، قد تصدّع من خشية الله ومن كل ما أُنزل عليه..

ونطالع في سورة {**الإسراء**} أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، حتى لو كان بعضهم لبعض ظهيرا وسندا معاونا. فالرحمن أنزل القرآن من أم الكتاب الي السماء الأولي، ثم خلق الإنسان وعلمه البيان. وبذلك فإن تفصيل هذا الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. فهو كتاب هدي ورحمة للمؤمنين، يهدي للتي هي أقوم. إذ إن آيات

القرآن، ذلك الكتاب المتفرد المبين، هو هداية وبُشرى للمؤمنين. ونعلم من بداية سورة البقرة أن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الذكاة. وإيمانهم بالغيب يجب أن يكون إلى درجة اليقين وكأنهم يرونه فعلا بأعينهم.

ويقول لنا ربي سبحانه: {هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾} (**الجاثية**). ولو تأملنا كلمة "نستنسخ" لوجدنا أن استنسخه تعني اكتتبه عن معارضة. وفي التهذيب: النسخ اكتتاب كتابا عن كتاب حرفا بحرف. والأصل نُسخةٌ. والمكتوب عنه نُسخة لأنه قام مقامه. والكاتب ناسخ. والاستنساخ لغة يعني: كَتَبَ كتابٌ من كتاب. أي إن ما نطالعه في هذه الآية {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} تعني أن الحفظة الكرام اللذان حدد لهما الله أن يرابطا عن يمين وعن يسار كل إنسان، يستنسخان أعماله على الدوام. أي أنهما يقومان بعمل نسخة طبق الأصل من أعمالنا بخيرها وشرها، لتُرفع إلى رب العالمين، لنحاسب بمقتضاها يوم الحساب.

وقد أوضح المولي سبحانه أنه قد أنزل القرآن في شهر رمضان، هدي للناس وبيّنات من الهدي والتوضيح لما بين الخير والشر، والصواب والخطأ. واختيار هذا التوقيت التعبدي المبارك يؤكد أهمية الالتزام بذلك الجانب تحديدا. وهو في كل سورة يضمنها سبحانه توضيحا للمؤمنين، وكأنه برنامج لحياتهم وتصرفاتهم وأخلاقياتهم ومعاملاتهم في مختلف المجالات والميادين. إذ لم يترك الله سبحانه كبيرة أو صغيرة إلا وقد أوضح كيفية التعامل معها أو بواسطتها.

فالقرآن برنامج أو دستور حياة، وتنظيم لمختلف قطاعات الحياة الدنيوية والأخروية. بما أن كل ما نقوم به في كل لحظة من لحظات حياتنا يقوم الملائكة الكرام، المكلفون باستنساخ أعمالنا، خيرها وشرها. وإن هذا الاستنساخ الغيبي والمطابق لأعمالنا هو الذي سنحاسب عليه. وأقول الغيبي لأن الجسد إلى التراب، أما الروح فإلى ربها. والنفس هي التي ستحاسب عن كل ما قامت به من خير أو شر في كل لحظة من لحظات حياتها.

ومن الغريب أن نطالع في تاريخ حياة البشر بالقرآن، أن الله سبحانه وتعالي لم يترك أمة إلا وأكرمها بنفس الرسالة والتوجيهات، التي توضح لهم ألا يعبدوا إلا الله، وألا يُشركوا به أحدا، وأن

يؤمنوا بالغيب، وأن يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم. إلا إن أكثر الناس لا يعبئون. وإن رأوا آية يعرضون عنها ويقولون سحر مستعر ويكذبون ما أكرمهم به رب العالمين ويتبعون أهواءهم.

وقد جاءتهم من الأنباء والحكَم البالغة ما يجعلهم يستقيموا ويلتزموا بتعاليم الله. فقد كذبت قوم نوح واتهموا الرسول الذي أتاهم بالجنون. وكذبت قوم عاد. فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. ومهما يسّر الله القرآن للذكر يواصل الناس انغماسهم في متاهات الدنيا.. وكذبت ثمود بالنذر ورفضوا اتباع الرسول الذي أكرمهم به الله واتهموه بالكذب الأشر. وكذبت قوم لوط بالنذر، فأرسل الله عليهم حاصبا، أي وباء الجدري والحصبة، والحجارة والحصي..

ومن الغريب أن نلاحظ معنيان مختلفان لكلمة حاصبا. فهي تعني في لسان العرب المرض والحجارة. وما أشبه تلك الأيام بما نمر به اليوم نتيجة لابتعادنا عن الدين، وخاصة تقاعسنا عن الدفاع عنه ضد الهجمة الشرسة التي تحيط بنا، وتخاذلنا عن التعريف به. ويكفي أن في أيدينا ثلث القرآن الكريم الذي يوضح فيه رب العالمين كيف حاد أصحاب الرسالتين السابقتين، اليهود والنصارى، عن رسالة التوحيد التي أكرمهم بها وكيف حذرهم من الشرك بالله وألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به أحدا. ويكفينا ثلث القرآن تقريبا يصف فيه ربي كل ما قاموا به من تحريف وتغيير لرسالة الإسلام واقترافهم الشرك بالله أو أن له ولد سبحانه.

وفي كل مرة يُيسر الله كتابه للذكر. فهل من متذكر؟ لقد جاء آل فرعون وأتتهم النذر، فكذبوا بآيات الله، ويتواصل الكفر والإنكار وإصدار التهم والإدانات.. لذلك ليس من الغريب بعد كل ذلك العناد من البشر أن يُرسل المولي عز وجل لكل هذه الأجناس التي تتوالى كموج البحر، يكرمها الله بالكتاب العزيز، وتأبي الموجة العاتية أن تتخلي عن صلفها.. نعم، ليس بغريب بعد كل ذلك أن نطالع آية نستحق الصفعة التي تكيلها لنا، إذ يقول ربي: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾} (الكهف).

" أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا"! يا لها من عبارة جد جارحة مريرة، بل مهينة لكل إنسان. فمثل ذلك الإنسان العنيد في عناده، لا يساوي في نظر الله سبحانه وتعالي إلا مجرد "شيء"، وأن هذا "الشيء" هو

أكثر المخلوقات جدلا وعنادا. فالشيء هو ما لا مردود له، ولا حياة فيه، كالمنضدة أو المقعد.. فهي عبارة تشير إلى كيان مجرد من أي معني إنساني. ثم ندرك من الآية أن ذلك "الشيء" الخالي من أي معني أو قيمة، هو أكثر المخلوقات جدلا ونقاشا لكلمات الله وتوجيهاته. ويا لها من صورة، صورتنا أمام خالقنا.. ويقول ربي في سورة "الإسراء": {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾}